التكرار هو طريقة السلف في العلم والحفظ

بسم الله الرحمن الرحيم

جَاء في تَرجمة أحمدَ بنِ الفُرَاتِ (أبي مسعودٍ الرَّازي): أنَّه كان يُكرِّرُ كلَّ حَديثٍ خمسَ مائةِ مَرَّةٍ.(١) وقَالَ له رَجلٌ: إنَّا نَنْسى الحديثَ ؟ فقال: أيُّكمْ يرْجِعُ في حِفظِ حديثٍ وَاحِدٍ خمس مائة مرَّةٍ ؟! قَالوا: وَمَنْ يَقوَى عَلَى هَذَا ؟ فَقَال: لِذاكَ لا تحفظون (٢).

وفي ترجمة (أبي بَكرٍ الأَبْهَريِّ المالكيِّ) قال: قَرَأتُ مُخْتَصَرَ ابنِ عبد الحكم خمسمائة مرة (والأَسَدية) خمساً وسبعين مرة، و(المُوَطَّأَ) كذلك، و(المَبْسُوطَ) ثلاثين مرة ومختصرَ ابنِ البرقي سبعين مرة.(٣)

هذا وأمثالُه – ممَّا سَنورِدُه إنْ شَاءَ الله – يُبَيِّنُ اِحْتِفاءَ السَّلفِ والمتقدِّمين بـ(التَّكْرَارِ) بِوَصْفِهِ طَرِيقَـًا من طُرُقِ تَحصِيلِ العِلْمِ، وسَبِيلاً قَويمـًا لتَثْبِيتِهِ وعَدمِ نِسْيَانه، والتَّكرَارُ – أيُّهَا الموفَّق –: عِبَارةٌ عَنْ تكريرِ المَحْفُوظِ والمَقروءِ وإعادَتِهِ وطُولِ تَرديده ؛ بُغْيَة ضَبْطِهِ وتَرسِيخِهِ، كَأَنْ تَعْمِدَ إلى حِزبٍ من القُرآنِ، أو إلى حَدِيثٍ، أو صَفْحةٍ من المتُونِ فَتَقُومَ بحِفْظِهَا، ثُمَّ بتِكْرَارِها التَّكرارَ الكَثِيرَ (٥٠، ١٠٠، ٢٠٠،...)، فإنَّكَ إنْ فَعَلتَ ذَلكَ اِشْتَدَ مَتنُ مَحْفُوظِك، فَلا تُتعبُك كَثْرةُ المرَاجَعَةِ ولا تُرْهِقُكَ السُّرْعَةُ في التَّفَلت، وصَارَ مَحفوظكَ – في كلِّ وَقْتٍ– قَريبَ الاستِحْضَارِ، سَهْلَ المرَاجَعَة.

أيُّهَا القَارئُ :

إنَّ مَا وَصَفتُهُ لَكَ ليس بِدْعَـًا مِنَ القَولِ، أو مِثَاليَّاتٍ مِن الخَيَال، بلْ هَذَا مَا عَليهِ السَّلَفُ المتقدِّمون والخَلَفُ الحَاذِقُونَ في الحِفظِ وَالمطَالعة، وأنَا أذكُرُ لك من أقوالهم وأحوَالِهِمْ مَا يَكُونُ لَكَ في دَربِك سِرَاجـًا ودَليلاً :

فَقَد رَوَى الخَطِيبُ البَغْدِاديِّ (في الجَامع ١/ ٢٣٨) عَنْ عَلقَمةَ قَالَ: اطِيلُوا ذِكرَ الحَديثِ لا يَدْرُس.

وقال عَبَّاسٌ الدُّوريُّ: سمعتُ يحيى بنَ مَعِينٍ يقولُ: لَو لم نكتُب (وفي لفظٍ: نَسْمَع) الحَديثَ خمسينَ مَرَّةً مَا عَرَفناه. (٤)

وجاءَ في تَرْجمة الإمَامِ أبي إسْحَاق الشِّيرَازيِّ أنَّهُ قَالَ: "كُنتُ أُعيدُ كلَّ قِيَاسٍ أَلفَ مَرَّةٍ، فَإذَا فَرغْتُ منه أَخذْتُ قيَاسًا آخَرَ وهَكَذَا، وكُنتُ أُعيدُ كُلَّ درسٍ أَلفَ مَرَّةٍ فإذا كَانَ في المسْأَلةِ بيتٌ يُسْتَشْهدُ به حَفظتُ القَصِيدةَ " (٥). وكَانَ أبو إسْحَاق يُعيدُ الدَّرْسَ في بِدَايتِه مِائَةَ مَرَّةٍ.(كما في المنتظم لابن الجوزي ٤/ ٤٨٩).

وَقَدْ قَالَ ابنُ بَشْكُوَال (في الصلة ١/ ١٤٦) في ترجمة أبي بَكرٍ غَالبِ بنِ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ عَطِيةَ الغرناطي (ت:٥١٨) – والدِ ابنِ عَطِيَّة المفَسِّرِ –: " وَقَرأتُ بخطِّ بعضِ أصْحَابِنَا أنَّه سَمِعَ أبَا بكر بنِ عّطِيَّةَ يَذكُرُ أنَّهُ كَرَّرَ صَحِيحَ البُخَاريِّ سَبعَ مِائةِ مَرَّةٍ " ا.هـ

وكَانَ الحَسن بنُ ذي النُّونِ أبو المَفَاخِرِ النَّيْسَابُوري (المنسوبُ للمُعْتَزِلَةِ) (ت: ٥٤٥ هـ) يقولُ: الشَّيءُ إذَا لم يُعَدْ سَبعينَ مَرَّةً لا يَسْتَقرُّ. ا.هـ (٦). وهَذَا عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيبِ فَقَدْ جَاءَ عَنْهُ أنَّهُ: كَانَ يُعيدُ الدَّرْسَ خَمسينَ مرةً (٧)

وقَال الذَّهَبيُّ (في السِّيرِ ٢٣ / ١١٥) في ترجمة ابن العَجَميِّ (ت: ٦٤٢هـ): "يُقالُ: أَلْقَى (المُهَذَّبَ) دُرُوسًا خمسًا وعِشْرينَ مَرَّةً " ا.هـ.

وَقَالَ السَّخَاوي (في الضِّياءِ اللامع ٢/ ٤١٨) في ترجمة عَبدِ الَّلطيف الكِرمَانيِّ الحَنَفِي: " وممن أَخَذَ عَنْهُ الزينُ قاسم والشَّمسُ الأمشاطي وحَكى لي عنه أنه سمعه يقول: طَالعت (المحيط) للبرهاني مائة مرة." والمحيط البرهاني في الفقه النعماني للإمام المرغيناني في فقه الحنفية.

وجَاءَ عن بكر بنِ محمدِ بن أبي الفَضْلِ الأَنْصَاريِّ: أنَّه رُبما كَانَ في ابتداءِ طَلَبِهِ يُكرِّرُ المسْألةَ أربعَ مائة مَرَّةٍ.(٨). وسُئِلَ يومًا عن مسألةٍ غريبةٍ فَقَالَ: كَرَّرتُ هَذهِ المسْألةَ لَيلةً في بُرجٍ من حِصْنِ بُخَارَى أربَعَ مائة مرة.(٩)،

وُنقِلَ عن ابنِ هِشَامٍ أنَّهُ قَرَأَ الألفِيَّةَ ألفَ مَرَّةٍ.(١٠)

وقدْ كَانَ لصَحِيحِ البُخَاريِّ ومُسْلمٍ عِنَايَةٌ فَائِقَةٌ عندَهُم في التَّكرَارِ، فقد كَرَّرَهُ بعضُهُم مئةَ مَرَّةٍ، وستين مَرَّةً وثلاثين مَرَّةً...، ولَعَلَّ التَّكرارَ عندَهم مُنْصَبٌ عَلَى أُمَّاتِ الكُتُبِ في كُلِّ فَنٍّ كالأحاديثِ والألفيَّةِ والمتُون المعتَمَدة، دونَ سائرِ الكُتبِ التي إما تقرأ مع الاستظهار وإما تقرأ فقط.

وكَانُوا يَرَونَ أنَّ إعادةَ النَّظَرِ والتَّكرَارِ تُوقِفُ المَرءَ عَلَى مَا لم يَطَّلِعْ عَلَيهِ سَابقـًا، لا في المطَالَعَة ولا في الحِفْظِ. قَالَ المزَنِيُّ – رحمه الله –: قَرأتُ (الرِّسَالةَ) خمسَ مِائة مَرَّةٍ، مَا مِنْ مَرَّةٍ إلا واسْتَفدتُ مِنْهَا فَائِدَةً جَديدَةً. وقَالَ أيضـًا: أَنَا أَنْظُرُ في (الرِّسَالةِ) من خمسينَ سَنَة، مَا أَعْلمُ أنِّي نَظَرتُ فِيهَا مَرَّةً إلا استفدتُ مِنْهَا شَيئـًا لم أَكُنْ عَرَفْتُهُ (١١).

وكان التَّكرَارُ عندَهم إِمَّا بالعَدِّ وإمَّا بالزَّمَنِ، وكُلُّ طَريقةٍ لَهَا مَزِيَّةٌ.

قَال ابنُ الأثيرِ في المَثَلِ السَّائِرِ ١/ ٤٦: " وكُنتُ جَرَّدتُ من الأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ كِتَابـًا يَشْتَمِلُ عَلَى ثَلاثةِ آلافِ خَبرٍ كُلُّهَا تَدخُلُ في الاسْتِعمَالِ، ومَا زِلتُ أُوَاظِبُ عَلَى مُطَالَعَتِهِ مُدَّةً تَزيدُ عَلَى عَشْر سنين، فَكنتُ أنهي مُطَالعتَه في كلِّ أسبوعٍ مَرَّةً حَتَّى دَارَ على نَاظِري وخَاطِري ما يزيدُ على خمسِ مائةِ مَرَّةٍ، وصَارَ محفوظـًا لا يَشُذُّ عَني منهُ شَيءٌ ".

وهذا الذي ذَكَره ابنُ الأثير: أنه لا يَشُذُّ عنه منه شيءٌ = هو مَزِيةُ التَّكرَارِ وفَائِدَتُه، فإنَّ الشّيءَ إذا أُعيدَ مَرَّاتٍ كثيرةٍ صَارَ النِّسيانُ فيه قليلٌ، والخَطأُ فيه نَادرٌ. وأنتَ تَرى ذلك في شُؤُونِكَ كُلِّهَا، فالطَّريقُ الذي تَسلُكُهُ في اليومِ مَرَّاتٍ تجد أنَّك قد خَبَرتَه وعَرَفتَه، بتَفَاصِيلِه ودَقَائِقه.

والتَّكرارُ – أيضـًا – دَأبُ كثيرٍ من الفُضَلاءِ المعَاصِرينَ، بل هُوَ المعتَمَدُ في بَعضِ الأَقْطَارِ كَمَا هو مُشتهُر عن الشَّنَاقِطَةِ، وَأَخبَارُهم في هذا تَطُولُ. (١٢)

أَيُّهَا المبَاركُ :

هذا الذي وَصَفتُهُ لكَ هو الأصلَحُ لغَالبِ طَلَبَةِ العلمِ والمهتَمِّينَ به، وأَمَّا من رَزَقه الله ذَاكِرةً قَوِيَّةً مَتِينةً بحيثُ يحفظُ سَريعـًا ويَنْسى بَطِيئـًا فَهَذا نَادِرٌ لا يُقَاسُ عَليه، وقَليلٌ لا يُنَبَّه عَلَيه، وأَمَّا جُلُّ الناسِ فالتَّكرارُ لهم هو: الأصلح. بَلْ قد يُقالُ: طُول تَرديد العلم وتكراره يَحتَاجُه سَرِيعُ الحِفظِ أيضـًا، وهذا ظَاهرُ صنيعِ حُفَّاظِ المسلمين، كالبُخَاري وغيره.

وتَكرارُ المحفوظِ يُعين على ضَبطِه وثَبَاته، ويُعين – أيضـًا – عِندَ المراجعة ؛ لأنَّ الإنسانَ قد تَعترَضُه الأَعمالُ فيبتعدُ عن مَحفوظَاتِه، فإنْ كانَ قد أَدامَ تكرارها في أوَّلِ حِفظهِ سَهُلَ عليه استِرجَاعُها، وقدْ رأيتُ من أصحَابِ الحفظِ السَّريعِ مَنْ يُعاني في المرَاجَعةِ كالمعَانَاةِ في أوَّل الحفظ بل أشدُّ، حتى إنَّ بعضهم: يخيل إليه أنه مَا مرَّ على حافِظَته منه شيء.

فمن ترك التكرار زاهداً به، معتقداً أنَّ الحفظَ السَّريعَ كَافٍ في رُسُوخِ المحفُوظِ فَهَذَا يُسْرِعُ إليه النِّسيانُ، وتصعُب عليه المراجَعةُ، ولو ظنَّ أوَّلَ أمْرِهِ أنَّه مُتقنٌ، كَحَال العَجُوزِ التي ذَكَرَ خَبرَها ابنُ الجَوزِيِّ فَقَالَ: " وحَكَى لنَا الحَسَنُ – يعني ابنَ أبي بَكر النَّيسَابُوري– أنَّ فَقِيهاً أعَادَ الدَّرسَ في بَيْتِهِ مِرَاراً كثيرة، فقالت لَهُ عَجُوزٌ في بيته: قد والله حفظتُه أنا، فقال: أَعِيدِيهِ فأعادته، فَلَمَّا كانَ بَعدَ أيَّامٍ، قال: يا عجوزُ أعيدي ذلك الدَّرسَ، فقالت: ما أحفظُه، قال: أَنَا أُكرِّر لئلا يُصيبني مَا أَصَابَك " (١٣).

وقد رَأينا من طُلاَبِ العِلمِ من يَقِفُ عن التَّعَلُّمِ والطَّلَبِ بعدَ طُولِ سَيرٍ، فإذا سألَته قال: لم أُحَصلْ شَيْئًا، ولا يَبقَى من حِفظي شيءٌ ؛ لأنَّه أَدمنَ الحِفْظَ السَّرِيعَ وأُولِعَ بِهِ، فَصَارَ كالمُنْبَتِّ...، وبعضُهم يَنسى العلمَ، ويرجعُ شِبهَ عَاميٍّ في سَنَةٍ إنْ هو شَغَلَتهُ الشَّوَاغِلُ عن حفظه وقراءته ؛ والعِلَّةُ: الحفظُ السريعُ.

وهَذا مما يُفَسِّرُ لك – أيُّهَا الموَفَّقُ – أمرين هَامَّين: أحدها: انتشَارُ الثَّقَافةِ السَّطْحيةِ، وغِيابُ العلمِ المؤَثَّلِ الصَّميمِ، فإنَّ السَيرَ عَلى التُؤَدةِ يَقطعُ الهِمَمَ، ويُتعبُ العَجُولَ، والثَّاني: نُدرةُ العَالم الموسُوعي، إذِ الطَّالبُ يفني العمرَ في الفَنِّ والفَنَّينِ علَّه أنْ يستبَقِي حِفظَه، ويُلِمَّ بأطرَافه، فإنْ رَامَ الغَوصَ والتَّعَدُدَ أتعبَه بناءُه الوَاهنُ وأسَاسُه المتَصَدِّعُ. وهذا هو الذي جعل سلَفَنَا – والله أعلم – ينهَجُون هذا المسْلَك، ويأخذون به.

والتَّكرارُ وإنْ كَانتْ تَصْحَبُه بَعضُ السَّآمةِ ويُلازِمُه التَّريثُ، فإنَّه أَبقَى في الذِّهنِ، وأثبت في الحافظة. ولَئِنْ أسرَعَ المرءُ في الحفظ ليَتأَخَّرنَّ في المراجعة ويتعبَ، كما ثَبَتَ ذلك في التجربة ، فإنَّ الحفظَ السَّريعَ يُوهمُ الإنسانَ بـ(كثْرةِ التَّحصِيلِ) وأنَّه به يَخْتَصرُ العلمَ، ويُدركُ بالزَّمنِ اليسير، فإذا عَادَ الطَّالبُ إلى هَذا الحفظِ وَجَدَ أرْضًا قاعًا، وبناءاً مُتَصَدِّعًا. وفي المثل: رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا (١٤)، فإذا جمَعَ المرء بينَ التَرديدِ والتَّكرارِ وبين المراجعة المستمرَّة – ولا بُدَّ– فهو المؤَمَّلُ والغَاية.

وقد كنتُ في أَوَّلِ طَلبي للعلم أجِدُ مَشَقةً في بَقَاءِ الحفظِ ودَوَامِهِ مع حَافظَتي الجيِّدةِ، فَلمَّا عرفتُ هذا المسلكَ، واقْتَعَدتُ هَذِهِ الطَّرِيقةِ يَسَّرَ الله لي ما كنت إليه أصبو، وفيه آملُ، ورأيتُ أنَّ البَونَ شَاسِعٌ، والشُّقةَ كبيرةٌ.

وقد جَرَّبَ التكرارَ عشراتُ الطُلاب في حِفظِهم للقُرآنِ ممن أعرفُهم فوجدوا فيه الغَايَة، واستغْنوا – بَعونِ الله– ثمَّ به عن كُلِّ طَرِيقةٍ وكُلِّ (دَوْرَة)...

وقد جَّربَه الفَقِيرُ إلى الله في القُرآنِ وفي المتُونِ والمنْظُومَاتِ والقَصَائِدِ فلم أرَ قطُّ أَحسنَ منه، ولا أشدَّ تثبيتـًا... كيفَ لا ؟! وأنتَ تُعيدُ الوجهَ من القرآن، أو الصَّفْحةَ من العِلمَ مائةَ مَرَّةٍ ؟ أَفتَرَى ذلك يَعدلُ من أَخذَهُ في عُجَالَتِه، وَنَقَشَهُ من سَاعَتِه ؟!.

فهَذِهِ – أيُّها القارئ – نصيحةُ أخٍ قد جرَّب الطريقةَ وحَلَبَ شَطْرَهَا (١٥)، فاشدُدْ عليها يَدَكَ، واعزِم عَلَى الأخذِ بها بقُوَّةٍ، وإنْ أتعَبَك هذا الطريقُ فلا تنسَ أنَّهُ طَريقُ من قَبْلَكَ، وأنَّهُ (لا يُستَطاعُ العلم بَراحةِ الجسْمِ)، ومن لَزمَ الصَّبرَ أفلحَ، وصَبرُ ساعةٍ أدومُ للراحةِ.

قَالَ الشَّاعرُ :

وقَلَّ مَنْ جَدَّ في أَمْرٍ يُطالِبُهُ... فاستَصْحَبَ الصَّبْرَ إلاَّ فاز بالظَّفَر (١٦)

وقال: (١٧)

اخلقْ بذي الصبرِ أن يحظى بحاجته... ومدمن القرعِ للأبوابِ أن يلجا

وقال الآخَرُ:

فالصبرُ مفتاحُ النجاحِ ولم نجدْ... صعبـًا بغيرِ الصبرِ يبلغُهُ الأملْ

****

والحمد لله في الأول والآخر، وصلى الله على النبي المصطفى وسلَّم

وكتبه: ابن المهلهل

---

(١) تهذيب التهذيب ١ / ٥٨.ط. المكتبة الشاملة، وما يأتي أيضـًا.

(٢) تهذيب الكمال للمزي ١/ ٤٢٤.

(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض ١ / ٤٢٧، والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ١/ ١٣٧.

(٤) تاريخ دمشق ١٤/ ٦٥، وسير اعلام النبلاء للذهبي ١١/ ٨٤، و٤/ ٣٤٢

(٥) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٥٨، وطبقات الشافعية الكبرى ٤/ ١١٥، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ١/ ٣٨.

(٦) المنتظم ٥/ ١٧٠، ولسان الميزان ١/ ٢٨٨.

(٧) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ٢/ ٨٢.

(٨) البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٧.

(٩) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٩/ ٢٠١، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٤١٦

(١٠) تاريخ الجبرتي ٢/ ١٥٠.

(١١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ٥٩.

(١٢) مقال: لماذا الشناقطة يحفظون ؟ لمحمود بن محمد المختار الشنقيطي.

(١٣) الحث على حفظ العلم صـ ٤٤ ـ.

(١٤) يضرب للرجل يشتد حرصه على الحاجة فيخرق فيها ويفارق التؤدة في التماسها فتفوته وتسبقه، وله قصة. انظر جمهرة الأمثال للعسكري ١/ ٤٨٢، ومجمع الأمثال للميداني ١/ ٢٩٤.

(١٥) مأخوذ من المثل: حَلَبَ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ، وهو مستعارٌ من حَلَبَ أَشْطُرُ الناقة وذلك إذا حلب خِلْفَين من أخلافها ثم يحلبها الثانية خِلْفَيْن أيضـًا. والمعنى: أنه اخْتَبَر الدهْرَ شطري خيره وشره فعرف ما فيه. يضرب فيمن جَرَّبَ الدهر. جمهرة الأمثال للميداني، رقم: ١٠٣٣

(١٦) اختلف في نسبة هذا البيت، فنسبه ابنُ قتيبة مع أبيات أُخَر لمحمد بن يسير (الشعر والشعراء ١/ ١٩٤) وقد يقال: بشير، ونسبه غير واحد إلى علي بن أبي طالب كما في المحاسن والمساوئ ١/ ٢٠٤، والتذكرة الحمدونية ٢/ ٢٥.

(١٧) هو لمحمد بن يسير أيضـًا كما في الشعر والشعراء ١/ ١٩٤، والأغاني ١٤/ ٤٣.